المستقبل
AL-MUSTAQBAL
الأثنين 18-06-2018 العدد 6403

الجامعة الأميركية والجامعة اليسوعية في بيروت:

العمق التاريخي والجسور المشتركة للبروفسور سليم دكاش

يقظان التقي

«الجامعة الأميركية والجامعة اليسوعية في بيروت، العمق التاريخي لرسالتيهما التربوية وآفاق المستقبل»، قراءة تربوية وأكاديمية للبروفسور سليم دكاش، صدرت عن «دار نلسن» للنشر في بيروت.

الدراسة شكلت الحاضرة التذكارية لبرنامج أنيس المقدسي للآداب في الجامعة الأميركية في بيروت ألقاها رئيس جامعة القديس يوسف في بيروت في العام ٢٠١٧، وهو يعيد نشرها لأهمية ما تعكسه من قراءة في التحولات السياسية والاجتماعية والثقافية والتاريخانية في العمق التاريخي لرسالة الجامعتين التربوية وكمختبر تجريبي للثقافات وأبعد من المعرفة إلى البحث عن حقائق الأشياء والحقوق الإنسانية والحريات والإبداعية على اختلافها.

مئة عام استذكارية لتلك العلاقة بين الكلية الإنجيلية والجامعة اليسوعية في العام ١٩١٤، حين أغلقت السلطات العثمانية جامعة القديس يوسف وحوّلتها إلى ثكنة عسكرية وإلى مخزن للإدارة العثمانية، إذ هُجر الآباء اليسوعيين خصوصاً الفرنسيون منهم من ديرهم وهو دير الجامعة، ولم يعد لهم بيت يلجأون إليه، فاستضافهم المرسلون المسيحيون في الجامعة الأميركية وتحول بيت الدكتور بوست إلى ملجأ للآباء اليسوعيين وللإخوة الفرنسيين حيث أكلوا وشربوا في قاعة طعام الويست هول. أما جامعة القديس مع مكتبتها العظيمة ذات المئة ألف كتاب فوقعت غنيمة حرب بين أيدي الأتراك. تلك الكارثة التي حلّت في الجامعة اليسوعية العام ١٩١٤ واستمرت حتى العام ١٩١٩ خفف من عنائها زملاء الدراسة وبالتحديد شخصيات الإرسالية الأميركية من دون الدخول في نقاش حول مسائل من مثل خطر الانتشار والبروتستنتي البيليشي في جبل لبنان والشرق، أو خطر أطباق الكاثوليكية البابوية على مسيحيي الشرق قاطبة، وهذه أدبيات سياسة خاضعة للنقاش التاريخي النقدي لما جرى في تلك المرحلة، ومقاربة تاريخ آخر حدث بكل تلك القسوة.

البروفسور سليم دكاش معني بتأريخ تلك المرحلة في الإضاءة على أسس التعاون بين الجامعتين المتميزين من دون تصفية حسابات من قوى تلك المرحلة ولا الإغراق في تصوير مآسي السلطات التي حكمت حينها، بل ملامسة ما اكتسبته تلك المرحلة من تعاون أكاديمي وأدبي وإنساني خلاّق على الرغم من الأوضاع القاسية، واستعادة مستوى ثقافي وتربوي وديني رفيع حول موضوع الجامعتين ورسالتهما التربوية، هكذا كان مستوى التعاون، على مستوى مواجهة الحملات الحربية والظروف الصعبة، في تعاون مدهش لا يمكن لأحد أن يقلّل من أهميته ولا من قيمته قبل مئة سنة.

المحاضرة/ الدراسة تنشر في ظل أوضاع صعبة تعيشها مجمل الجامعات العربية الكبيرة، ومثلها أوضاع التعليم والحرية، وإذ تتمحور الدراسة حول لبنان قبل مئة سنة، فهي تنطلق بحرّية بأفكار مستقبلية وأدوار على غناها وتنوعها، والدكتور دكاش لديه فكرة تركيز متجذرة حول أهمية البناء الجامعي وكل ما يحدث حول ما هو مشترك وبشكل مميز من تلك العلاقة بين الجامعتين وبإيمان عميق برسالة لبنان التربوية.

دائماً هناك بحث عما صنعته الجامعات في لبنان مختبراً للأفكار والطاقات والتيارات والاتجاهات والهويات، ولكل ما يصنع العقل والإنسان الجديد ليس فقط في لبنان، بل في المنطقة من خلال الفكر والعلم والفلسفة والاختيارات وحتى الإيديولوجيات المختلفة. هذا ما سعت إليه الجامعتان منذ قرن وما تسمّيه حركة التنوير والتحول الذي هو شرط لبنان، وحرية الاجتماع والإنسان الجديد في ظل أوضاع عسكريتاريا وراديكالية وحروب وانقسامات وأزمات تصادر مسار المدينة الحديثة والإرادة الشعبية.

الجامعتان رسمتا جسور التواصل بين أهل العلم واتجهتا نحو الانفتاح والتعاون بدل التوتر بالخوف والانفلات والعزلة من ردة فعل إيجابية على سلبية الأوضاع السياسية والفكرية وحتى الاقتصادية.

وهكذا كانت بيروت مكاناً مهماً في تلك المرحلة المقيّدة، تشكل مرحلة انفتاحية وتعاونية وتنويرية بإرثها الثري، وتفاعلاتها الجدية المستمرة على أفكار جامعية حديثة، وعلى مسار تاريخي واجتماعي غاية في الجدلية التفاعلية البناءة. ويقدم البروفسور دكاش صورة عن تلك الإعانة كأنما الزمن صار زمنين بعلاقة جامعية ما تزال مرئية إلى الآن.

تضمن الكتاب عدة أقسام:

القسم الأول: «علامات مضيئة في زمن التأسيس»، والقسم الثاني «شخصيتان نموذجيتان من الجامعتين»، والقسم الثالث بعنوان «مسألة الحريات الدينية وآثار حرب لبنان»، والقسم الرابع «بين التقليد والحداثة»، أما القسم الخامس فحمل عنوان «التحديات»، إلى الخاتمة.

أما عناوين الفقرات فتركزت حول زمن التأسيس للجامعتين، شخصيتا الدكتور كورينليوس فان دايك ولويس شيخو، تعزيز دور اللغة العربية، الاحترام والتضامن في المحنة، الاتحاد في زمن الحرب والاغتيالات (في مواجهة اغتيال مالكوم كير) من القومية اللبنانية والقومية العربية، إلى تأسيس النظام الجامعي اللبناني ومستند دراسات اللغة العربية، والدراسات القانونية والشرعية ومقاربة دور البروتستانت واليسوعيين في إنشاء المدارس والطريق الطويلة والمسارات التاريخية الموازية للمؤسستين والتحديات المشتركة، إلى المسارات المتوازية أيضاً بين القومية اللبنانية والقومية العربية إبان الانتداب وبعده.

نظرة سريعة إلى ما صنعته كلية الحقوق في الجامعة الأميركية من مآثر بإعداد العشرات من رؤساء الجمهورية اللبنانية والوزراء من متخرجيها ومئات النواب وكبار موظفي الدولة من مدراء وسفراء، ذلك أن كلية الحقوق في الجامعة اليسوعية أو المساحة الكوزمبولتية في الجامعة الأميركية حققنا إنجازات مهمة وذات طابع نوعي في مجال البحث العلمي والحقوقي وفي مجال النظرة إلى الواقع اللبناني كمساحة للعيش المشترك بين مجموعات المنطقة الدينية وعلى إعلاء الشعور بالمواطنة الواحدة بين الجميع ومن بين تلك الأسماء المضيئة من اليسوعية مثل شكري قرداحي وبشار طبّاع وإميل تيّان وجان باز وبيار غنّاجة وانطوان فتال، ومثلها أسماء أخرى كبيرة في الجامعة الأميركية في بيروت.

في ما يلي مقتطف من المحاضرة/ الكتاب للبروفسور سليمان دكاش بعنوان: «مسألة الحريات الدينية وآثار حرب لبنان» وآخر بعنوان «بين التقليد والحداثة»:

أ - احترام وتضامن من حيث المبدأ في المحنة

الكلية السورية البروتستانتية وجامعة القديس يوسف اللتان تم انشاؤهما معاً من مرسلين ومسيحيين في أرض العرب والإسلام، واجهتا المسائل نفسها، بدءاً بمسألة الحرية الدينية، وحريتهما الدينية الخاصة وحرية طلابهما. كلتاهما استقبلت بشكل سريع مسيحيين شبان من مختلف الطقوس وكذلك المسلمين. فلنذكر أن هدف المرسلين الأول كان التبشير بالانجيل والوعظ الديني. فالنظم الأساسية في ذلك الوقت كانت تجعل الخدمات الدينية إلزامية لجميع المسجلين.

تحولت قضية الطلاب المسلمين واليهود والمطالبين بممارسة الشعائر الدينية المسيحية من قبَل الإدارة إلى أزمة مفتوحة في الكلية البروتستانتية السورية في العام ١٩٠٨ وبخاصة في العام ١٩٠٩. واعتماداً على حرية الضمير المندرجة في الدستور العثماني الذي كان أعيد إصلاحه قبل عام، رفض ٢٢٠ طالباً مسلماً ويهودياً، أي مجموع الطلاب غير المسيحيين وهم ٢٥٪ من مجموع الطلاب المسجلين في الجامعة، رفضوا متابعة مقررات التعليم الدينية الدراسية وقداديس الأحد. واتخذت القضية نطاقاً واسعاً وتمت مناقشتها في الصحافة المصرية ودوائر السلطة، وفي اسطنبول وواشنطن. ورفض المسؤولون في المؤسسة تقديم التنازلات، معتبرين أن المعنيين تسجلوا عن سابق علم، عندما أظهر هؤلاء، وبخاصة المسلمين منهم، تصميماً قوياً، وأقسموا على القرآن الكريم، متوجهين إلى الصحافة والحكومة وطلبوا انخراطهم إلى جامعة القديس يوسف (وهو واقع ليس معروفاً جداً في الجامعة الأميركية في بيروت...).

المسألة نفسها طرحت في جامعة القديس يوسف وعولجت بشكل مختلف. فرض النظام بالطبع الوجود الإجباري لجميع المسجلين في الممارسات الدينية. ولكن منذ العام ١٨٧٥ تم التسامح تجاه الخروقات التي حصلت من قبَل الطلاب غير الكاثوليك. وأصبح هذا الموقف هو القاعدة في بداية القرن العشرين، ولا سيما استجابة لطلب الطلاب الفارسيين إعفاءهم من الممارسة الدينية. ومنذ ذلك الحين، لا يُطلب من الطلاب غير المسيحيين في كلية الطب وفي الجامعة اليسوعية في بيروت ممارسة الشعائر الدينية، الا يوم الاحتفال بالقداس السنوي الذي يحضره قنصل فرنسا؛ بالتالي تم نقل من يرغب بالصلاة من الطلاب المسلمين إلى المسجد لإقامة شعائرهم الدينية، كما وصفت الأمر المؤرخة شانتال فرداي Chantal Verdeil.

اليسوعيون كانوا فخورين بطبيعة الحال بالحرية التي تسود في الجامعة: في الجامعة الأميركية «يُمارس التبشير الديني، وفي الكلية الفرنسية يقتصر الأمر على القيام بدراسة الطب»، كما كتب الأب كاتين Cattin بشيء من الارتياح. بطبيعة الحال، كان من الصعب تفويت مثل هذه الفرصة... ولكن الحقيقة الأهم هي أن سلطات جامعة القديس يوسف رفضت قبول طلاب مهديين بالإقصاء من الكلية البروتستانتية السورية؛ الأب كاتين نفسه، الذي استقبل البعض منهم، أعادهم قائلاً لهم أن يعودوا عندما تنتهي القضية.

كانت الأزمة موقتة، فلم يتم استبعاد الطلاب المضربين من الجامعة، وسوف يتم تسويتها حقاً في العام ١٩٢٠، عندما أصبحت الكلية السورية البروتستانتية الجامعة الأميركية في بيروت، مزيلة بالتالي ذكر الدين من اسمها للتأكيد على الحرية الدينية التي بوشر بتعزيزها رسمياً منذ تلك الفترة.

(...) يظهر التضامن في مواجهة المحن وفي خدمة المجتمع عندما يتعرض لبنان لأزمة كبرى تمزقه حرب لا نهاية لها بين الأشقاء. جامعيون مؤمنون، مسيحيون ومسلمون، حين وعوا أصالة دياناتهم ومساهمة الحوار من أجل التفاهم والمصالحة، قرروا إنشاء مساحة أكاديمية للإصغاء وتبادل الآراء والدراسة. وهكذا نشأ في العام ١٩٧٧، قسم الدراسات الإسلامية المسيحية في الجامعة اليسوعية الذي سيحتفل يوم الجمعة المقبل بذكرى مرور ٤٠ سنة على تأسيسه بندوة أنتم جميعاً مدعوون إليها.

الغرض من هذه الأكاديمية كان يقضي ولا يزال بتعزيز معرفة الإسلام والمسيحية من قبَل المسيحيين والمسلمين، بروح من الاحترام المتبادل ووفقاً للمناهج الأكاديمية. في العام ١٩٨٠، أصبحت الأكاديمية معهد الدراسات الإسلامية المسيحية وواصل أنشطته خلال الحرب. حول الأب اوغسطين دوبري - لاتور تواجد أيضاً يوسف إبيش Yusuf Ibich من الجامعة الأميركية في بيروت والعديد من الشخصيات الأخرى (مثل هشام نشّابه وأندريه سكريما...).

وقد دفعت كل من جامعة القديس يوسف والجامعة الأميركية في بيروت ثمناً باهظاً للحرب. توفي فيها سبعة آباء يسوعيين غير لبنانيين، خمسة فرنسيين، وهولندي وأميركي، وكلهم كانوا مكرسين لخدمة لبنان لسنوات عديدة.

أنا لا أنسى أيضاً الأعضاء الآخرين في أسرة جامعة القديس يوسف الذين توفّوا أثناء الحرب، ولا أولئك الذين كانوا في الجامعة الأميركية في بيروت. أنا أفكر بشكل خاص في اختطاف ديفيد دودج David Dodge، رئيس الجامعة الأميركية في بيروت في العام ١٩٨٢، وخاصة اغتيال مالكولم كير في ١٨ كانون الثاني (يناير) ١٩٨٤. جميع رؤساء الجامعات في لبنان بدءاً من رئيس الجامعة الراحل الأب جان دوكروييه Jean Ducruet حضروا مراسم الدفن ونشروا بياناً مشتركاً يدين هذا العمل.

لن أتطرق إلى الخسائر المادية الهائلة التي سببتها الحرب، حتى اضطرت جامعة القديس يوسف إخلاء بعض أحرامها المدمرة والمحتلة في التسعينات. وقد تمكنت الجامعة الأميركية في بيروت وجامعة القديس يوسف من الاستمرار وحتى التوسع. وقد أنشأت الجامعة الأميركية في بيروت حرمين في الأشرفية وجونيه خارج المقر الرئيسي للجامعة، وجامعة القديس يوسف مراكزها الإقليمية الثلاثة في الشمال والجنوب والبقاع والمراكز الجامعية الإقليمية التي لا تزال قائمة وفي تطور دائم.

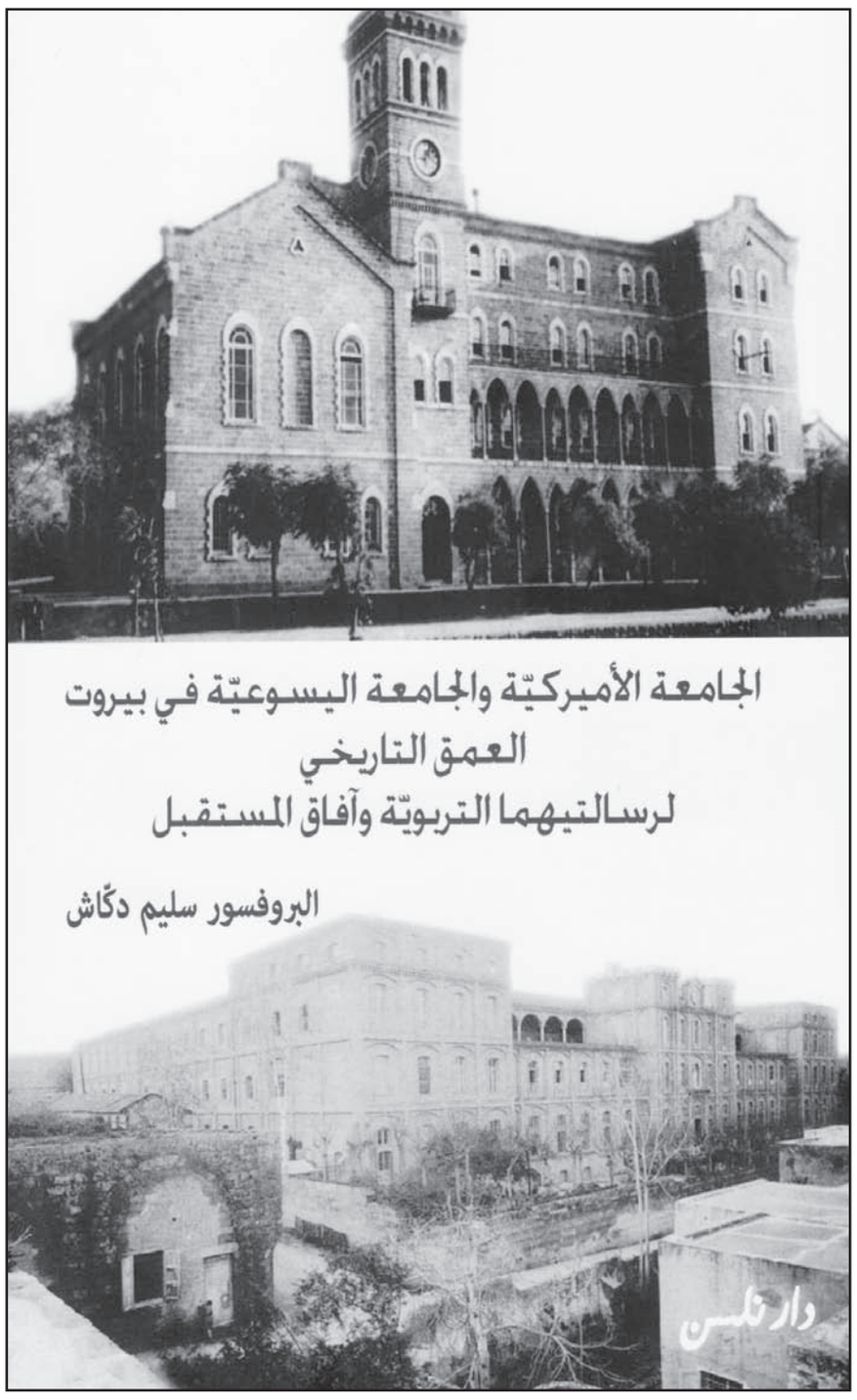

■ غلاف الإصدار

بين التقليد والحداثة

ويمكن القول إن الجامعتين ساهمتا إلى حد كبير، إلى جانب مؤسسات تربوية أخرى، في إرساء قواعد النهضة العربية واليقظة الثقافية في العالم العربي وأطلق عليها اسم النهضة الأولى عبر التغييرات التي طرأت على اللغة العربية التي ظلّت حتى مستهل الحركة الفكرية لغة جامدة يصعب التعبير بها عن الفكر والحضارة. فعلى أقلام الكتّاب اللبنانيين (وغيرهم من البلاد العربية) وجلهم من متخرجي الجامعتين، تطورت اللغة وتكيّفت لتلائم متطلبات الثقافة الحديثة، ومرد هذا التبدل الذي حصل على اللغة العربية يعود إلى التلاقح الذي حصل بين الثقافة الغربية الحديثة التي تنظر إلى اللغة وإلى الآداب وإلى النص المكتوب بشكل عام كمعطى تاريخي يمكن تفكيكه وإعادة تركيبه وإدخال الجديد المبدع عليه في حين أنه كان يُنظر إلى اللغة العربية كمعطى قدسي ثابت لا يجوز مسّه. الا أنه ينبغي لنا القول في الوقت عينه إن هذا التلاقح لم يولّد دوماً التناغم المرجو والحالة الثقافية الجديدة المقبولة، بل إنه خلق أيضاً حالة تشنّج ونزاع كبيرين بين التقليد والحديث وبين القديم والدخيل، ما زلنا حتى اليوم نعاني منه على مختلف المستويات لا فقط الأدبية والعلمية بل إنه ترك آثاره على العلاقات بين الناس ضمن المجتمع الواحد. إن هذا التلاقح لم يرق إلى مستوى صياغة ما هو أصيل، أي ما هو نتيجة تلاقح بين الشرق والغرب وبين القديم والحديث. وإنه لمن الموضوعي القول إن هذا النزاع ظهر أيضاً على صفحات منشورات قريبة من الجامعة اليسوعية مثل جريدة «البشير» وعلى صفحات مجلة «المشرق» التي أدانت الأفكار المادية التي روّج لها أحد متخرجي الجامعة الأميركية شبلي الشميل وكذلك الطروحات التي اعتبرها البعض معادية للدين وقد عمدت إلى نشرها مجلة «المقتطف».

بين القومية اللبنانية والقومية العربية

وأستشهد في هذا السياق بما قاله دافيد دودج، وهو من أحفاد دانيال بلس المؤسس: «إن الكلية وفرت جواً من التفكير الحر والنقاش الحر. التقت من خلاله الثقافة العربية والطلاب العرب بالمفاهيم الغربية، مما ولّد الكثير من الأفكار ومنها فكرة الانتماء القومي، مما أسس لفكرة القومية العربية.

فالجامعة الأميركية كانت عززت نشاة القومية بشقّيها العربي والإقليمي، مما خلق جواً من معاداة الوجود الفرنسي والبريطاني عند الطلاب واصفين ذلك الوجود بالامبريالية الأوروبية كما كان يقول الرئيس بايارد دودج في الحلقات المغلقة، وذلك ما يناقض المساواتية (egalitqrianism) والديموقراطية الأميركية، وهما شرطان لتحقق حرية الشعوب.

وواقع الحال أن الجامعة الأميركية إبان الانتداب وبعده ولفترة غير وجيزة مثّلت قطباً أكاديمياً ثقافياً أيديولوجياً محصناً، حيث أن الطلاب كانوا يتوافدون إليها من مختلف المناطق العربية، في حين أن الجامعة اليسوعية تخصصت في تكوين كوادر الدولة اللبنانية الناشئة ولمدة طويلة وما زالت حتى اليوم، وصارت مع الأيام وحتى نهاية الحرب اللبنانية بين ١٩٧٥ و١٩٩٠ مساحة ترعرعت فيها كوادر الأحزاب المسيحية ضمن صراع بينها. أما في الجامعة الأميركية فنجد الأستاذ أنطوان سعاده معلّماً اللغة الألمانية ومؤسساً حزب سورية الكبرى، في حين كانت تنمو يوماً بعد يوم مجموعة العروة الوثقى التي تنتهج منهج القومية العربية. ثم نجد الدمشقي قسطنطين زريق موقعاً كتابه «معنى النكبة» الذي يتهم فيه عقلية عربية انهزامية حيال فلسطين ويتساءل عن إزدواجية الموقف الأميركي الذي ينادي بالعدالة والديموقراطية في الجامعة ولا يفعل شيئاً حيال شعب يجرّد من أرضه وهويته. نكبة ١٩٤٨ دفعت بالعديدين من الأساتذة الفلسطينيين نحو الجامعة وبالكثير من الطلاب الذين عملوا على أن تبقى قضية فلسطين قضية حية. ومن بين هؤلاء جورج حبش أحد مؤسسي - حركة القوميين العرب. تلك الحركة غزت التيار الناصري بأفكارها قبل أن تتحول حركات جهادية متنوعة. ونتذكر من خلال قراءة التاريخ كيف أن الجامعة استمرت ثورة تحرّك ضد العدوان الثلاثي على السويس، ثم ضد حرب الجزائر وضد السياسة الأميركية إبان الحرب الباردة. وطلاب الجامعة الأميركية هم الذين أسسوا النادي الثقافي العربي في مواجهة الندوة اللبنانية التي أطلقها ميشال أسمر والمحسوبة على متخرجي الجامعة اليسوعية وعلى الأوساط الفرنكوفونية. فقد استمرت الجامعة مساحة كوزموبوليتية، أكثر من الجامعة اليسوعية التي انحسر دورها الإقليمي بفعل انحسار اللغة والثقافة الفرنسية والتي تحولت أكثر فأكثر إلى جامعة لبنانية للبنانيين، وقد أفضى ذلك إلى إعلان شرعتها الحديثة في السنة ١٩٧٥ حيث أعلنت فيها عن مركزيتها وإنشاء رئاسة فاعلة لها، وكذلك عن نظرتها إلى الواقع اللبناني كمساحة للعيش المشترك بين مجموعاتها الدينية، تعمل على إعلاء الشعور بالمواطنية الواحدة بين الجميع.

ويُمكن القول إنه من ناحية الجامعة اليسوعية، مع تأسيس كلية اللاهوت في السنة ١٨٧٥، نمت شيئاً فشيئاً فكرة الانتماء القومي للبنان الكبير بين الطلاب الإكليريكيين وازدهرت بشكل ملحوظ مع نهاية الحرب العالمية الأولى ولا عجب أن يكون البطريرك الياس الحويك أحد متخرجي كلية اللاهوت في اليسوعية على رأس المطالبين بدولة لبنان الكبير ومن المفاوضين الأساسيين الموقعين على معاهدة فرساي الشهيرة.

نعرف أن متخرجي كلية الحقوق لعبوا الدور البارز في التأسيس القانوني والإداري للبنان الكبير كما أراده عديدون من اللبنانيين، الا أن فكرة تأسيس الكلية في السنة ١٩١٣ لم تكن مرتبطة بالإعداد لإنشاء دولة لبنان. الدافع الأساسي لليسوعيين والفرنسيين، عبر بول هوفلان، جاء من ازدياد العلاقات التجارية والاقتصادية والقضائية والتربوية بين فرنسا وأوروبا والشرق الأدنى، مما عزز فكرة إنشاء مدرسة للحقوق تضاهي المدرسة الرومانية في بيروت، تُعدّ الكوادر الحقوقية والموارد البشرية القادرة على حمل عبء المحاماة والمرافعة أمام المحاكم. زد على ذلك أن الأوروبيين كانوا يريدون إدخال الشرع المدني الفرنسي على الشرق كمرجع يحفظ حقوقهم ويحدد واجباتهم، وبالتالي الابتعاد عن الشرع الإسلامي الذي لم يكن يتوافق مع مصالحهم.